الفطرة والدين في نظر القدامى والمحدثين

عبد القادر بن عبد الله *

أشربت النفوس الآدمية الفطرة، وهي الطبيعة الإنسانية المتكاملة بكل قواها ووظائفها الحيوية التنسيقية الكامنة والظاهرة، فهما شقان متكاملان بهما يتم ملاك الصفة الحيوانية والذات الإنسانية.

وتتآصر تكوينات فطرية معنوية أخرى مع هذين النسقين، منها: العقل، الذي هو قوة (أو لطيفة) عالمة ومدركة لحقائق الأشياء، يفيض بنوره على الجسد والروح، ولكنه ألصق بالروح، وأكثر خفاء على إدراكات الإنسان الحسية، ولهذا تنعدم معرفتنا لكنهه، فقد قال الله -تعالى-: (و يسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا)(1)، ومنها: النفس، وترتبط بها الغرائز والإرادات،و هي جوهر: (ذلك ثابت من جهة الشرع والعقل. أما الشرع فجميع خطابات الشرع تدل على أن النفس جوهر, وكذلك العقوبات الواردة في الشرع بعد الممات تدل على أن النفس جوهر، فإن الألم وإن حل بالبدن فلأجل النفس. ثم للنفس عذاب آخر يخصه، وذلك كالخزي والحسرة وألم الفراق وكذلك ما يدل على بقائه)، وأما من حيث العقل فيرى أن ذلك من وجهين: (وجه عام يمكن إثباته مع كل أحد، ووجه خاص يتفطن له أهل الخصوص والإنصاف. أما الأول فهو أن يعلم أن حقيقة الإنسان ليست عبارة عن الجسم فحسب، فإنه إنما يكون إنسانا إلا إذا كان جوهرا، وأن يكون له امتداد في أبعاد تفرض طولا- وعرضا وعمقا -وأن يكون مع ذلك ذا نفس- وأن تكون نفسه نفسا يتغذى بها ويحس ويتحرك بالإرادة، ومع ذلك يكون بحيث يصلح لأن يتفهم المعقولات، ويتعلم الصناعات ويعملها، إن لم يحدث عائق من خارج لا من جهة الإنسانية، فإذا التأم جميع هذا حصل من جملتها ذات واحدة، هي ذات الإنسان. فإذا ثبت بهذا أن حقيقة الإنسان لا تكون عرضا؛ لأن الأعراض يجوز أن تتبدل، والحقيقة بعينها باقية - فإن الحقائق لا- تتبدل، فإذا ما هو ثابت فيك مذ كنت فهو نفسك، وما يطرأ عليك ويزول هو الأ-عراض. وأما الوجه الثاني وهو البيان الخاص، فهو الذي يصلح لأهل الفطانة ومَنْ فيه لطف الفهم والإصابة، فهو أنك إذا كنت صحيحا مطرحا عنك الآفات مجنبا عنك صدمات الهوى وغيرها من الطوارق والآفات - فلا- تتلامس أعضاؤك ولا تتماس أجزاؤك، وكنت في هواء طلق، ففي هذه الحالة أنت لا تغفل عن إنيتك وحقيقتك بل في النوم أيضا)2)).

وعلى الجملة فإن أمر النفس عند الإمام الغزالي جوهر منزه عن المادة والصور، أي أنها ليست جسما ولا بعضه. وقد وصفت في القرآن بأوصاف أربعة:

1- مطمئنة: (يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلَى ربك راضية مرضية) الفجر 27-28.

2- موسوسة: (لقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه) ق. 16.

3- لوامة: (ولا أقسم بالنفس اللوامة) القيامة. 2. وهي ما يسمى عند المحدثين بالضمير.

4- أمارة بالسوء: (إن النفس لأمارة بالسوء) يوسف. 53.

و هذه الأنفس يفيض عليها نور العقل فتهتدي به، وهو لجامها، والضابط لها. فإذا أدبر عنها فاضت عليها نوازع الطباع والأهواء، فتتأثر بها وتنقاد لها.

و إن النفوس توضع لها الموازين يوم الحساب. وقد كان الغزالي يرى أنها التي تنعم بعد البدن وتعذب (لأن الألم وإن حل بالبدن فلأجل النفس)(3).

و مِن الأواصر المكونة المعنوية الأخرى: القلب. وهو كذلك ألصق بالمعاني الروحية منه إلى المادية غير ما يراه المشرحون والفسيولوجيون من أنه هذا العضو أو المضغة المسؤولة عن ضخ وجمع الدم، وتصريفه إلى أنسجة وخلايا الجسم. وهذا مصطلح خاص بعلم فسيولوجيا الأعضاء.

و قد عبر القرآن الكريم عن الجانب الروحي له في آيات كثيرة:

(إلا من أتى الله بقلب سليم) الشعراء. 89.

(و لقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس، لهم قلوب لا يفقهون بها) آل عمران. 159.

(أ فلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يفقهون بها) الحج. 46.

(إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أَو ألقى السمع وهو شهيد) ق. 37

ووردت أوصافه في أحاديث متواترة، شملت فصائل الناس حسب درجتهم في التقوى وقبولهم للدين أو نفورهم منه، فمنهم المؤمن والكافر والمنافق.

هذه الفطرة كما خلقها الباري فأتقن بُرْأَها، وصوَّرَها فأحكم صورتها. هي خلقة أوجدها الحق عليها عاقلة ومدركة ومتغذية ومتكاثرة، وحاوية لمبادئ واستعدادات مثبتة فيها للتربية والتوجيه والتحصيل. والحاصل أنها سالمة خالية من الرعونات والتطبع البيئي القبيح. ولهذا قال –سبحانه-: (فطرة الله التي فطر الناس عليها). وهي بهذا اللطف الإلهي لا تصدر عنها إلا الفضائل؛ لأنها نقية على فضيلة خلقتها، وصافية على حسن تقويمها، والله -تعالى- قال: (لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم، ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات)(4). وجعل العقل عليها دليلا ونبراسا؛ لأنه بوظيفته النورانية الباطنية تدرك الحقائق وتؤتى الأعمال الصالحة والعقائد النافعة الحقة، ومن ثم كان إدراك كنه الدين وحقيقته. والسقوط في أسفل السافلين لا- يكون إلا باكتسابِ الأعمال والعادات الفاسدة والطبائع والعقائد الباطلة والتي تعرض على العقل قبولا- أو ردا، ولهذا قال أصحاب جهنم: (لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير)(5).

هذا كله هو شهود الفطرة. وبها رُشّحَ الإنسان لعمارة الأرض وإصلاحها وعدم إفسادها، وبها وعلى أصلها النقي تم الاستخلاف، وذلك ما هدف إليه الإسلام. ولهذا وصفه الله بأنه دين الفطرة.

ولما كان كذلك كان كل ما أتى به واقعيا يتلاءم مع فطرة الإنسان، فترتاح إليه. وبدا تصميم الإسلام للحياة البشرية (فرادى وجماعات) قابلا للتحقق في حيواتهم، متميزا بالواقعية والسلامة. والعقل البشري يقبله ويحمده؛ لأن آثاره العظيمة على حياة الإنسان تدركها الفطرة ببساطة، فتسكن وتطمئن إليه.

ولما كانت مجبولة على الصفاء، ولا يصدر عنها إلا الفضائل الإنسانية،كان الناس على مختلف مشاربهم وقوة مداركهم وتنوع نحلهم متفقين على أهمية وفائدة هذه الفضائل ونوازع الخير دون الوقائح ونوازع الشر؛ لأن تأصلها في الفطرة أوجب لها ذلك.

الفطرة في القرآن والسنة

النصوص الصريحة القطعية من القرآن الكريم والسنة توجب الإيمان بهذه الفطرة، وأنها هيئة الخلقة الأولى للإنسان. وكان اللازم تبيان هذه الهيئة بسبيل علمي أثبتته الملاحظة والتجربة والنظر المستنير العقلي لمراحل الإنسان، وكشف الحجاب عن كثير من الجوانب الخفية لجوانب الإنسان المكونةِ بيولوجيا ونفسيا وعقليا، وعبر مراحل عمره منذ ظهوره كخلية ملقحة في رحم المرأة إلى موته، مرورا بولادته ومرحلة طفولته ثم شبابه وشيخوخته.

الآيات الكريمة في الفطرة:

- (فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله) الروم. 30.
- (فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرة) الإسراء. 51.
- (قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا) طه. 72.
- (يا قوم لا أسألكم عليه أجرا إن أجري إلا على الذي فطرني) هود. 51.
- (ومالي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون) يس. 22.
- (إلا الذي فطرني فإنه سيهدين) الزخرف. 27.

الأحاديث الشريفة الصحيحة المتواترة في الفطرة وخصالها:

خص الرسول الأكرم -عليه الصلاة والسلام- الفطرة بتعاليم، استفدنا منها مفهومها، وعرفنا خصالها، وهي سنن الفطرة المرتبطة بالإنسان ودينه وبدنه ووظائفه، منها:

* عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (كل

مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كالبهيمة، هل تحسون فيها من جدعاء حتى تكونوا أنتم تجدعونها)(6).

* ما رواه أبو هريرة -رضي الله عنه- أنه قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: (خمس من الفطرة -وفي رواية- الفطرة خمس: الختان والاستحداد وقص الشارب وتقليم الأظافر ونتف الإبط)(7).

* وفي رواية مسلم: عن أنس بن مالك -رضي الله عنه- قال: (وقت لنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في قص الشارب وتقليم الأظافر ونتف الإبط وحلق العانة ألا نترك أكثر من أربعين ليلة)(8).

* كما روى البخاري في صحيحه، عن عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (من الفطرة قص الشارب).

* عن عائشة أم المؤمنين -رضي الله عنها- قالت: إن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (عشر من الفطرة: قص الشارب واستنشاق الماء والسواك وإعفاء اللحية ونتف الإبط وحلق العانة وانتقاص الماء وقص الأظافر وغسل البراجم) وأضاف الراوي: ونسيت العاشرة إلا أن تكون المضمضة(9).

ويقول القاضي عياض: لعل العاشرة الختان لأنه مذكور في حديث (الفطرة خمس).

* وروى البخاري ومسلم في صحيحيهما، فيما ورد في حديث الإسراء والمعراج: (عندما خير جبريل -عليه السلام- النبي -صلى الله عليه وسلم-، تاركا الخمر وشاربا اللبن، فقال جبريل: الحمد لله الذي هداك للفطرة).

يبدو مما سبق احتفاء الإسلام بهذه الخصال، واهتمامه بها، ودعوة الرسول الأكرم صريحة إلى الأخذ بهذه السنن، لما لها من منافع صحية جمة في حياة المسلم، وأما أمر السواك والختان فأمر الطب واضح فيهما؛ لأن نظافة الفم من أوجب الواجبات، وكذا نظافة الأعضاء الجنسية، لما يترتب عن إهمال نظافتهما من خطر مباشر على صحة الإنسان، وكتب الطب مسهبة في ذكر ذلك من تعفن وتدرن والتهابات وعدوى.

فتلك سنن الأنبياء من قبل، لما جمع لنا من آثار صحيحة متواترة. وكل هذه الخصال داخلة في الفضائل التي حث الإسلام الحنيف على التحلي بها، فإنها لو لم تكن فضائل ما نبه عليها الرسول الأعظم وأمر بها -صلى الله عليه وسلم-.

أقوال فلاسفة وعلماء الإسلام في الفطرة

بَيَّنَ العلماء وأصحاب النظر الفلسفي القدامى والمحدثون حقيقة الفطرة، وهم متفقون على مفهومها العام أنها ذلك النظام الذي أوجده الله في كل مخلوق ظاهرا وباطنا. ولكنْ وَقَعَ الخلاف في النظر إليها من حيث اختلاطها بالمدركات التي تدركها النفوس أو تعارضها، كالعوائد الفاسدة والضلالات المحرفة عن الجادة والصواب، وهل هذه الأخيرة

لها استعداد في الفطرة؟

نظر القدامى في حقيقة الفطرة

1-رأي الشيخ ابن سينا

بَيَّنَ الشيخ حقيقة الفطرة في كتاب "النجاة"، فقال: (و معنى الفطرة أن يتوهم الإنسان نفسه حصل في الدنيا دفعة وهو بالغ عاقل، لكنه لم يسمع رأيا ولم يعتقد مذهبا ولم يعاشر أمة ولم يعرف سياسة، ولكنه شاهد المحسوسات وأخذ منها الحالات، ثم يعرض على ذهنه شيئا ويتشكك فيه فإن أمكنه الشك، فالفطرة لا تشهد به، وإن لم يمكنه الشك فهو ما توجبه الفطرة. وليس كل ما توجبه فطرة الإنسان بصادق، بل كثير منها كاذب، إنما الصادق فطرة القوة التي تسمى عقلا.

و أما فطرة الذهن بالجملة فربما كان كاذبا، وإنما يكون هذا الكذب في الأمور التي ليست محسوسة بالذات، إما هي مثل مبادئ المحسوسات، كالهيولى والصورة، بل العقل نور الباري -تعالى-، أو هي أعم من المحسوسات، كالوحدة والكثرة والتناهي واللاتناهي والعلة والمعلول، وما أشبه ذلك. فإن العقل لما كان يبتدِئ من مقدمات يساعده عليها الوهم، ولا يناقض في شيء منها، ولا ينازع، ثم إذا انتهى إلى نتائج مضادة لمقتضى فطرته، أخذ الوهم حينئذ في الامتناع عن تسليم الحق اللازم، فيعلم أن هذه الفطرة فاسدة، وأن السبب فيه أن هذه جبلة قوة، لا تتصور شيئا إلا على نحو المحسوس. وهذا مثل مساعدة الوهم العقل في جميع المقدمات التي أنتجت أن من الموجودات ما ليس له وضع ولا هو في مكان، ثم امتناعه عن التصديق، بوجود هذا الشيء. ففطرة الوهم في المحسوسات وفي الخواص التي لها، ومن جهة ما هي محسوسة صادقة، يتبعها العقل، بل هو آلة للعقل في المحسوسات. وأما فطرتها في الأمور التي ليست بمحسوسة، لتصرفها إلى وجود محسوس فهي فطرة كاذبة...، أو هي أعم من المحسوسات بل هي مبادئ للمحسوسات. فالفطرة الصادقة هي مقدمات وآراء مشهورة محمودة أوجبِ التصديق بها إما شهادة الكل مثل أن العدل جميل، وإما شهادة الأكثر،و إما شهادة العلماء أو الأفاضل منهم. وليست الذائعات من جهة ما هي ذائعات مما يقع التصديق بها في الفطرة. فما كان من الذائعات ليس بأولي عقلي ولا وهمي فإنها غير فطرية ولكنها متقررة عند الأنفس لأن العادة مستمرة عليه منذ الصبا، وربما دعا إليها محبة التسالم والاصطناع المضطر إليهما الإنسان، أو شيء من الأخلاق الإنسانية مثل الحياء والاستئناس، أو الاستقراء الكثير، أو كون القول في نفسه ذا شرط دقيق لأن يكون حقا صرفا، فلا يفطن لذلك الشرط ويؤخذ على الإطلاق)(10)

يبدو من هذا أن الشيخ ابن سينا ينبه على معنى الفطرة، تمييزا لها عما يخالطها من المدركات الباطلة، التي تأصلت في النفس الإنسانية بسبب العواري والعوارض الفاسدة، ودعاوى أهل الباطل والضلالات المنحرفة.

ويرى أن المؤهلين لمعرفتها وتمييزها هم العلماء والحكماء، وأهل المعرفة الذين يصرفون عقولهم إلى تحقيق معناها وما يميزها عن المعتقدات الفاسدة بما يلابسها من الإحساسات والمدركات. وأولئك هم الذين يعمقون النظر، فيكشفون اللبس الحاصل بين الأمر الفطري وغير الفطري؛ لأن شهادتهم مشهود لها، إذ هم أصحاب الألباب والنظر الدقيق الصائب على الغالب.

2- رأي ابن تيمية:

يرى الإمام ابن تيمية أن فطرة الإنسان هي التي خلق عليها سالما من الرعونات وعوارض البيئات الفاسدة. فهي نقية خلقة وصافية بدءا، ويربط ذلك بالإيمان. ثم يوضح أن انصراف الكافر عن الإيمان ليس أمرا خلقيا (أي فطريا)، وإنما هو نتاج فساد البيئة، وضلال معتقداتها، فهي التي أفسدت فطرته، وحجبت عنها الحق. والانحراف والجحود لحقائق الشرع نشأ من أنفس الناس توهما، وليس من الرب -سبحانه-. أما مزاعم الكفار بأنهم خلقوا على ذلك الكفر فكلها كذب وافتراء.

كما يرى أن قلوبهم ليست بالصماء التي لا تصل إلَى الهداية، وإنما لديها الاستعداد لتقبل الحق فذلك في الفطرة. أما الانحراف والضلال فمن الإنسان ومجتمعه.

نظر المحدثين في حقيقة الفطرة

1-الشيخ الإمام الطاهر بن عاشور

كان شيخ الإسلام الإمام الطاهر بن عاشور يؤصل لمقاصد الشريعة الإسلامية، بالتمثيل والاحتجاج لها بمباحثه الجليلة، قصد العودة إليها إذا استفحلت حجج الفرق والمذاهب حال الاختلاف بين الفقهاء عبر مختلف الأزمنة، خصوصا إذا وقع الالتباس، وتشابكت النوازل والوقائع، فيكون الفصل القول في ذلك من هذا التفصيل.

و لما أسس للمقاصد حدد بصفة نهائية مصطلح لفظ التشريع، فقال -رحمه الله-: (فمصطلحي إذا أطلقت لفظ التشريع أني لا أريد به ما هو قانون للأمة، ولا أريد به مطلق الشيء المشروع)(11).

فهو يرى أن أحكام العبادات جديرة بأن تسمى بالديانة، إذ لها أسرار زائدة على المعروف، تتعلق بسياسة النفس، وإصلاح الفرد الذي به يكون صلاح المجتمع.

وقصد من كل هذا أن مقاصد الشريعة الإسلامية ابتنت على أوصاف، وأعظم أوصافها الفطرة. وقد استخلص معناها من الآية الكريمة 30 من سورة الروم. (فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله).

وقبل أن يخوض في شرحه المسهب الرصين، تصدى لشرح الآية الكريمة، فقال: (إن المراد بالدين دين الإسلام لا محالة؛ لأن الخطاب للرسول الأكرم -صلى الله عليه وسلم-، وهو مأمور بإقامة وجهه للدين المرسل به. ومعنى إقامة الوجه بالذكر؛ لأنه جامع القصد

إليه والجد فيه. والمراد بوجهه جميع ذاته، فخص الوجه بالذكر لأنه جامع الحواس وآلات الإدراك، و(حنيفا) حال من (وجهك)، والحنيف: المائل. والمراد هنا الميل عن غير ذلك الدين من الشرك. قال -تعالى-: (حنفاء لله غير مشركين به) فدخل في هذا الخطاب جميع المسلمين باتفاق أهل التأويل.

و يخلص الطاهر بن عاشور إلَى أن الفطرة هي جملة الدين بعقائده وشرائعه، كما هو الأمر عند الأصوليين: أن الدين هو مجموع العقائد والعبادات والأحكام التي شرعها الله -سبحانه وتعالى- لتنظيم علاقة الناس بربهم وعلاقات بعضهم ببعض، حيث يقصد الشارع بذلك تثبيته في النفوس باتباع أحكام واجتناب أفعال وأقوال نهى عنها. لهذا قال -سبحانه-: (ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين) لأنه أصلا دين الفطرة.

وهو يميل إلَى قول ابن عطية والإمام الزمخشري في الفطرة.

- يعرف ابن عطية الأندلسي الفطرة في تفسيره بأنها (الخلقة والهيئة التي في نفس الإنسان التي هي مُعَدَّة ومُهَيَّأَة لأن يميز بها الله -تعالى-، ويستدل بها على ربه، ويعرف شرائعه).

- ويعرف الزمخشري الفطرة في تفسيره الكشاف للآية الكريمة 30 من سورة الروم بقوله: (والمعنى أنه خلقهم قابلين للتوحيد ودين الإسلام).

وبعد هذا التمهيد بأقوال علماء الإسلام في الفطرة، يخلص الإمام الطاهر بن عاشور إلَى تعريف الفطرة، فيقول:

(الفطرة الخلقة: أي النظام الذي أوجده الله في كل مخلوق. ففطرة الإنسان هي ما فطر أي خلق عليه الإنسان ظاهرا وباطنا أي جسدا وعقلا. فمشي الإنسان برجليه فطرة جسدية، ومحاولة أن يتناول الأشياء برجليه خلاف الفطرة. واستنتاج المسببات من أسبابها والنتائج من مقدماتها - فطرة عقلية.

ويرى أن الإسلام (فطرة الله) أي أن الأصول التي جاء بها هي من الفطرة، وهذه الأصول والفروع هي فضائل ذائعة مقبولة.

فضائل أخلاق الإسلام

أما في عقيدة الإسلام وشريعته، فالأخلاق متعلقة بها أشد التعلق، بل إنها صمام الأمان لشعب الإيمان، وسواء تعلق هذا بتكاليف الشرع، أم بتوجيهاته؛ لهذا قال -صلى الله عليه وسلم-: (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق).

والتكليف أصلا إنما كان تكليفا ليحفظ للإنسان المسلم دينه، وهو تطبيق العقيدة بأركانها، يدخل فيها الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر. وما العبادات إلا تكليف وتصديق بالعقيدة في التقرب إلى الله -سبحانه، حيث إن العبادات أساس ينعكس على جانب

السلوك، فتنتظم به الحياة والمعاملات في انسجام تام، وفق ميزان العدل والحِكمة اللذين يعدان من مقاصد الشرع في الاستخلاف، حتى لا يحدث اختلال يؤدي إلى فساد أو خسران.

وأما التوجيه فيكون في كل ما للإنسان من علاقات بنعم الحياة المادية والمعنوية، وفيما للإنسان من علاقات بالكون الرحب الذي سخره الله له. قال -تعالى-: (وسخر لكم ما في السموت وما في الأرض جميعا منه)(12).

وكل هذا التناغم في الأسباب المنتظمة مسخر لحياة الإنسان وأمنه وطمأنينته، وأداء عمله والقيام بعبادته، وتركيز جانب الخير والفضائل في نفسه، لاستتباب أمر دينه ودنياه، حتى لا تختل موازين أخلاقه وسلوكه، فيعيث في الأرض فسادا وعبثا وظلما؛ لأن ذلك سيكون حتما قلبا لموازين قواه التي ركزها الله في نفسه فطريا، وجعله أكثر ميلا لفعل الخيرات.

عوائق الفطرة

الإسلام دين فطري؛ لهذا وُسِمَ بالصفاء والسماحة واليسر. وكان اعتناقه سهلا، لا يجد القلب في الإيمان بعقيدته وشريعته عناء أو مشقة، شرط ألا تكون هناك معوقات وحواجز تحول بينه وبين الفطرة؛ لأن الإسلام من الله والفطرة من الله. فمقره وامتداده في هذه الفطرة. وكان مما يلزم الواعظين والمرشدين وأهل الإصلاح والتوجيه تطهير البيئة من العوالق المفسدة، والعوائق الضالة، التي تحجب العقيدة وصالح الأعمال عن الفطرة، فذلك مانع لإدراكها الحق.

وقد بين الحق -سبحانه وتعالى- بعد ذكر آية الفطرة من سورة الروم هذه العوائق، كما عرض قبلها الآيات الباهرات التي دلت على عظمة الخالق وقدرته، سواء أتعلق ذلك بخلق النفوس ومكنوناتها، أم بتكوين أسرها، أم بخلق هذا الكون الفسيح الهائل العظيم، أم بتباين الألسنة والألوان، أم باللجوء إليه -سبحانه- ليلا ونهارا وابتغاء فضله، وما ورد في معرض ذلك من آيات البرق وإنزال المطر، وإحياء الأرض بنباتها بعد موتها، وخضوع نواميس السماء والأرض لقدرته، والبعث، وقصة نشأة الخلائق وموتها وإعادتها. وقد وردت الآيات مرتبة بفواصل تشير إلى التفكر والعلم والسمع والعقل:

- (إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون)(الروم. الآية 20).

- (إن في ذلك لآيات للعالمين)(الروم. الآية 21). في قراءة حفص بكسر اللام في العالمين.

- (إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون)(الروم. الآية 22).

- (إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون)(الروم. الآية 23).

والغرض هو تفاعل قُوَى النفوس والقلوب مع هذه المشاهد الربانية، كي تكون أكثر

استعدادا لقبول الحق؛ لأن الإنسان إذا تفتحت أحاسيسه ومشاعره على ظواهر الكون الذي خلقه الله -تعالى-، وأعمل عقله فيها عرف أسرارها وأدرك حقائقها. أما إذا كانت النفوس صماء والقلوب منغلقة، والأحاسيسِ متبلدة فهيهات أن تدرك ذلك. وآيات كتاب الله -تعالى- التي تمثل العقيدة والتشريع تنفذ إلى الإنسان بالتفكر والسمع والتعقل، لأن هذه هي سبل وأدوات المعرفة المؤدية للإيمان الراسخ الصادق. وبهذا تحيى الفطرة ويتألق نورها. أما التبلد والصمم وعدم التعقل فمواقف تفسد الفطرة، وتمنع عنها الحقائق.

ويتأكد لنا من هذا أن العلم والعقل أساسان في عقيدة الإسلام، وما هذه الآيات الكونية الباهرة إلا دعوة لإطلاق العنان للعقل والفكر للانتفاع، فبهذا تتوهج الفطرة وتصفو. ففي الكون الرحب وظواهره المتنوعة ديدنها، وفي النظر في آيات الله -تعالى- انطلاقها من أسر الضلالات ومحو العوائق المكدرة لصفوها. وإن أكبر عائق لها ما ذكرته الآية الكريمة بعد ذلك: (بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم فمن يهدي من أضل الله ومالهم من ناصرين)(13).

فالفطرة ودين الإسلام في الإنسان ثابتان مترابطان في نسق خلقي واحد، ومتناسقان مع نواميس الكون والوجود؛ لأن خالقهما واحد أحد، والفطرة ثابتة صافية نقية على خلقتها لا تحب إلا الخير والفضائل، والإسلام ثابت وهو دين الحق به تصفو النفوس وتطمئن من مغبة الحيرة والتيه، وهو لا يدعو إلا إلى الخير والمكارم، فلا تبديل لخلق الله، ولا تغيير لصنع الله الذي أتقن كل شيء خلقه. وما الانفصام بينهما إلا بمفاسد وأوضار البيئة.

و قال الإمام رشيد رضا موضحا علاقة الفطرة بالقرآن الكريم: (القرآن الكريم كتاب أنزل على قلب رجل أمي نشأ على الفطرة البشرية، سليم العقل، صقيل النفس، طاهر الأخلاق، لم تتملكه تقاليد دينية ولا أهواء دنيوية، لأجل إحداث ثورة في العالم وسائر الأمم، يكتسح من العالم الإنساني ما دنس فطرته من رِجس الشرك والوثنية، الذي هبط بهذا الإنسان من أفقه الأعلى في عالم الأرض إلى عبادة مثلهن وما هو دونه من المخلوقات؛ لأنه يعرف كيف يحرك بواعث الثورة في الفطرة على قاعدة: (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)(14).

ولما كانت الفطرة والإسلام ثابتين غير متبدلين و(لا تبديل لخلق الله)، فهما لا يجافيان التطور، بل يدعوان إليه بالعلم والعقل، ويحتفيان بهما إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

****

الحواشي

*) باحث من المغرب.

1- سورة الإسراء، الآية85.

2- أبو حامد الغزالي. معارج القدس في مدارج النفس. ص:29-30. تحقيق فضيلة

الشيخ مصطفى أبي العلا، مكتبة الجندي، مصر.

3- المصدر نفسه. ص29.

4- سورة التين، الآيات4-5-6.

5- سورة الملك، الآية10.

6- البخاري. كتاب الجنائز باب ما جاء في أولاد المشركين. الحديث 139. ج. 2. ص:280. ومسلم. كتاب القدر. باب: كل مولود يولد على الفطرة. الحديث 2685. ص2047.

وقد شرح الحديث ابن عبد البر في التمهيد. وشرحه النووي في شرحه لمسلم.

7- رواه البخاري ومسلم.

8- رواه مسلم.

9- صحيح مسلم.

10- ابن سينا. كتاب النجاة، ص 99. دار الآفاق الجديدة. بيروت. تحقيق: ماجد فخري. الطبعة الأولى. 1405هـ/1985م.

11- فضيلة العلامة الشيخ الطاهر بن عاشور. مقاصد الشريعة الإسلامية. ص8-9. تحقيق ودراسة محمد الطاهر الميساوي. دار النفائس. الأردن. الطبعة الثانية: 1421هـ/2001م.

12- سورة الجاثية، الآية13.

13- سورة الإسراء، الآية16.

14- الإمام رشيد رضا صاحب المنار.